موقف الفكر الإسلامي من الأطروحات الفكرية الغربية المعاصرة
(نهاية التاريخ أنموذجاً)

أ.م. فائز صالح
محمود اللهيبي

The Islamic Thought Stand from the Contemporary Western Thesis: The End of History as a Model

Asst. Prof. Fai'z Salih M.

The last two decades of the 20th century data have shown the absence of polar pluralism, which prevailed the world, the United States being alone with international leadership, and the emergence of confrontation between this regime and the Islamic world. This has called for the emergence of many ideological theories justifying the new reality.

One of those theories is Fukuyama's (End of History). It is not a new thesis, yet an old idea. It is try to marketing western thought with a beautiful garment of theorization. We have witnessed the fall of the (End of History) theory, as it is said, by another American thinker, Samuel Huntington. So, are we on the edge of a new history?

ملخص : (موقف الفكر الإسلامي من الأطروحات الفكرية الغربية المعاصرة)
– نهاية التاريخ أنموذجاً .

لقد جاءت معطيات العقدين الأخيرين من القرن العشرين ، بغياب التعددية القطبية التي كانت تسود العالم ، وتَفرِّد الولايات المتحدة الأمريكية بالزعامة الدولية ، وظهور المواجهة بين هذا النظام والعالم الإسلامي ، ممّا دعا إلى ظهور العديد من النظريات الفكرية المعاصرة في العالم الغربي التي تبرر الواقع الجديد .

من تلك النظريات التي ظهرت (نظرية نهاية التاريخ) لفرنسيس فوكوياما ، وهي ليست أطروحة جديدة ، بل هي فكرة قديمة ، لكنها محاولة جديدة لتسويق الفكر الغربي برداء جميل من التنظير ، وقد رأينا سقوط نظرية نهاية التاريخ سريعاً على يد مفكر أمريكي آخر ، هو صموئيل هنتنكتون ، فهل نحن على عتبة تاريخ جديد ؟ .

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إنّ عالم السياسة ليس مجموعة من الوقائع والمواقف– والتي يمكن مراقبتها في الواقع–، وليس أفكار ومبادئ ومفاهيم ومعتقدات فحسب ، وإنّما صيغ معينة من التفكير والسلوك . ويرى بعض المفكرين من المفكرين والمؤرخين الغربيين أنّ الأمة الإسلامية تعاني في العصر الراهن من حالة تحدٍ، منهم المؤرخ البريطاني أرنولد توينبي بأنّ الحضارة الإسلامية تدور في فلك الحضارة الغربية ، والملاحظ أنّ التعامل مع الحضارة الغربية أخذت منذ أواخر القرن الثامن عشر صيغة الانبهار الذي دفع الكثير من نخب الأمة وعلمائها وأبنائها عموماً ، إلى الأخذ عن هذه الحضارة .

ولقد جاءت معطيات العقدين الأخيرين من القرن الماضي ، وبعد انهيار المعسكر الشرقيوزوال الاتحاد السوفيتي ، وغياب التعددية القطبية التي كانت تسود العالم ، وتَفرّد الولايات المتحدة الأمريكية بالزعامة الدولية ، ممّا دعا الكتاب والساسة الى ان يطلقوا عليه النظام العالمي الجديد ، وظهور المواجهة بين هذا النظام والعالم الإسلامي ، ممّا أدى إلى ظهور العديد من النظريات والأطروحات الفكرية في الغرب التي تسوّغ الواقع الجديد، من تلك النظريات والأطروحات (نهاية التاريخ والإنسان الأخير) لفرنسيس فوكوياما، و(صِدام الحضارات) لصموئيل هنتكتون، وصولاً إلى ما يُعرف بـ (العولمة) التي تجعل العالم كلّه قرية صغيرة تتحكم فيه الولايات المتحدة الأمريكية ، هذا الأمر جعل العالم الإسلامي يقف قبالة التحدي الغربي الجديد .

أحياناً ترتبط شهرة شخصٍ ما بكلمةٍ ذكرها أو عبارةٍ كتبها ، فإذا ما ذكرنا فرنسيس فوكوياما فإنّ عبارة (نهاية التاريخ) تظل أهم ما يرتبط به بالرغم من تنوع إنتاجه واختلاف مواقفه .

وسيتناول البحث موضوعه من خلال مناقشة أطروحة فوكوياما حول نهاية التاريخ في مبحثه الأول ، ومحاولة تقويم النظرية المذكورة في مبحثه الثاني ، أمّا المبحث الثالث فسيدور حول موقف الفكر الإسلامي من أطروحة نهاية التاريخ ثم الخاتمة . متخذين من المنهجين التاريخي والتحليلي طريقاً رئيساً في البحث .

ومن الله تعالى التوفيق ....

المبحث الأول : فوكوياما وأطروحة نهاية التاريخ :

كان يوشهير وفرانسيس فوكوياما Youshihiro Francis Fukuyama (المفكر الأمريكي المعاصر من أصل ياباني ، والمولود بشيكاغو في الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٥٢ ، وأستاذ مادة الاقتصاد الدولي في جامعة جورج ماسون ، ومدير برنامج التنمية الدولية في جامعة جونز هوبكنز)[١] ، أحد المعبِّرين عن هذه النظرة من خلال تأطيره إيّاها في أطروحة قديمة قام بإحيائها لتعبر عن الانتصار الغربي ، فإذا كانت نهاية الحرب العالمية الثانية تُمثِّل انتصاراً على الفاشية والنازّية ، فإنّ انتهاء الحرب الباردة بين القطبين الشرقي والغربي ، قد أعلَن بصورة قاطعة انتصار الديمقراطية الليبرالية على المنظومة الشيوعية ، وهذه الأطروحة نشرها أولاً في مقال له في مجلة The National Interest في صيف عام ١٩٨٩ ثمَّ حولَّه إلى كتاب في أكثر من ثلاثمائة صفحة، أصدره عام ١٩٩٢ تحت عنوان (نهاية التاريخ والإنسان الأخير)، يُبشِّر فيه بنهاية التاريخ وتأكيده أنَّ الغرب كسبَ المعركة . ومن مؤلفاته الأخرى التي أصدرها[٢] :

١ – التصدع العظيم : الطبيعة الإنسانية وإعادة صياغة النظام الاشتراكي .

٢ – بناء الدولة : الحكم والنظام العالمي في القرن الواحد والعشرين .

٣ – ما بعد الجنس البشري : تبعات ثورة التكنولوجيا الحيوية .

٤ – أمريكا على مفترق طرق .

٥ – ما بعد المحافظين الجدد : حينما اتجه اليمين خطأ .

فضلاً عن عشرات المقالات في الدوريات والصحف والمجلات السياسية والاقتصادية.

ونلاحظ في نهاية كتابه المذكور يقدم فوكوياما صورة حكائية لما توقعه (وربما يعتقد) بصدد ما بعد نهاية القرن العشرين : (موكب هائل من العربات على طول الطريق ، بعضها يُجَّر بطريقة حتمية باتجاه المدينة ، بينما بعضها الآخر يستقر في مخيمات في عراء الصحراء ، بعضها يغوص في أخاديد الممر الجبلي الأخير ، العديد منها سوف تترك مهمشة بعد أن يهاجمها الهنود الحمر !! بعض أفراد الموكب سيفقدون مسارهم ويسيرون في اتجاه خاطئ زمناً ، وقد تقرر عربة أو اثنتان إقامة مخيمات دائمة في إحدى مراحل الطريق

---

[١] نقلاً عن شبكة المعلومات الدولية ، الرابط aldplomacy 1 @ hotmail . Com .

[٢] فوكوياما والتحول الانقلابي من نهاية التاريخ إلى بدايته ، www . annabaa . org .

لترتاح من عناء الرحلة ، آخرون سيجدون دروباً بديلة ... الأغلبية العظمى ستصل إلى المدينة ، العربات متشابهة مع بعض الاختلاف التي تدل على وضعها أثناء الرحلة ... حينها سيقر كل عاقل أنه لا توجد إلاّ رحلة واحدة ووجهة واحدة)[١] .

هذه الصورة التي تشبه سيناريو أحد أفلام رعاة البقر الأمريكية ، تعبر عن وجهة نظره فيما يتعلق بنهاية التاريخ والإنسان الأخير ، ولكن ما المدينة التي يعنيها فوكوياما ؟ وما العربات السائرة بثقة أو بصعوبة أو المتوقفة ؟ لاشك أنّ الصورة واضحة تماماً ، ولكنه أفصح عنها بطريقة مغايرة ، ربما ليخفي هشاشة أطاريحه ! .

ويبدو أنّ فوكوياما يجد في انهيار الشيوعية انتصاراً للرأسمالية الغربية ، مع أنّ الأجدر به أن يجد هذا الانهيار إدانةً بانهيار الأيديولوجيات التي جثمت على صدر شعوب الكرة الأرضية طوال القرن العشرين أو قبله بقرنين أو أكثر ، وقد قصد فوكوياما أن يعارض فكرة نهاية التاريخ في نظرية كارل ماركس الشهيرة (المادية التاريخية) والتي اعتبر فيها أنّ نهاية تاريخ الاضطهاد الإنساني سينتهي عندما تزول الفوارق بين الطبقات الاجتماعية ، لقد بَشَّرَت الماركسية – اللينينية بالإنسان الأخير والمجتمع الأخير الذي يقع في قمة هرم التطور الاجتماعي السياسي للإنسان ، ولكنها أخذت بفكرتها واغترارها بها حتى غابت بأسرع ممّا كان يتصور أعداؤها . لاشك أنّ فوكوياما يشكل مدعاة للسخرية بين مفكري الغرب ، ولكن الأيديولوجية الإعلامية الغربية وجدت في أطاريحه مادة تسوغ بها سياسات الغرب[٢] .

فضلاً عن تأثره في بناء نظريته بآراء الفيلسوف الألماني المعروف هيجل حين ربط بين نهاية تاريخ الاضطهاد الإنساني واستقرار نظام السوق الحرة في الديمقراطيات الغربية ، وقد توصل فوكوياما في كتابه هذا إلى أنّ نهاية التاريخ تعني نهاية الحروب والثورات الدموية ، وأنّ حياة الإنسان الأخير هي حياة الأمان الشخصي والوفرة المادية . مؤكداً أنّ السبيل الوحيد لمستقبل البشرية هو اختيار (الديمقراطية الليبرالية) ، بوصفها الأنموذج الأمثل للعيش بسلام ورخاء وحرية . متجاوزاً مفهوم (الديمقراطية النيابية) ، التي تعني هيمنة البرلمان بوصفه السلطة المركزية في تشريع واختيار القوانين ونظم الحكم ، مهملاً الإشارة

---

[١] فرنسيس فوكوياما ، نهاية التاريخ والإنسان الأخير ، ترجمة بإشراف مطاع صفدي ، مركز الإنماء القومي ، بيروت ، ١٩٩٣ ، ص٣١٠ .

[٢] جودت سعيد وعبد الواحد علواني ، الإسلام والغرب والديمقراطية ، دار الفكر المعاصر ، بيروت، ١٩٩٦ ، ص١٨٤ .

إلـى (الديمقراطيـة الاشـتراكية) سـبيلاً مـن سـبل الإصـلاح الجديـد ، عـاداً (الديمقراطيـة الليبرالية) منتهى التطور الأيديولوجي للإنسانية في عالمنا المعاصر ، والشكل النهائي لأي حكم إنساني في زمننا الراهن ، أي إنّها من هذه الزاوية نهاية التاريخ[١].

وهذه السياسة التي وصلت إلى نهايتها – نهاية التاريخ حسب تعبير فوكوياما – تمثل الانتصار الغربي الليبرالي على الشرق الاشتراكي المستند إلى الأيديولوجية الماركسية ، ولكن الملاحظ على مقولته أنّه يؤكد بأنّ الديمقراطية الليبرالية بمؤسساتها الاقتصادية والسياسية بدأت تزحف على بقية أجزاء العالم بعد تراجع جميع الأيديولوجيات الأخرى ، وهذه العملية في حد ذاتها – حسب رؤية فوكوياما – هي نهاية التاريخ التي تعود إلى النقطة الأخيرة في التطور الأيديولوجي وهو بلوغ الديمقراطية الليبرالية[٢] ، فهو يجد في الولايات المتحدة الأمريكية وامتدادها الاقتصادي والقيمي (أوربا) إنّما يمثلان الدورة النهائية للبشرية وتاريخها، ويجد أنّ الإنسان الغربي هو الإنسان الكامل الأخير ، فإنّه يفصح عن نظرته القاصرة للتاريخ باعتباره حكاية النزاع والصراع عبر العصور .

إنّ حالة انتصار الغرب على الشيوعية في نهاية الثمانينيات من القرن العشرين – هذه – حالة يشوبها التضليل ، فكما عبَّر عنه نيكسون (الرئيس الأمريكي السابق) ، بأنّ خسارة جمهوريات الاتحاد السوفيتي للحرب لا تعني أنّ الغرب قد كسبها وانتصر ، لذلك فإنّ عملية تمجيد الرأسمالية الغربية ما هي بحالة فرح بالانتصار بقدر ما هي محاولة لصياغة أو تشكيل وضعية انتصار لتجاوز عيوب ونواقص تطغى على الأيديولوجية الغربية ، ولإمتصاص حدة الضغوط الداخلية بتصريفها نحو الخارج بتجميد الانتصار المزعوم وضرورة تصدير وتعميم القيم الحضارية الغربية بجوانبها ومجالاتها كافة . لذلك لم تكن نظرية فوكوياما التي ظهرت حتى قبل انهيار الاتحاد السوفيتي إلاّ محاولة لاحتواء نتائج المواجهة العالمية ، التي استمرت ما يقارب نصف القرن ، محلياً وعالمياً .

الجذور الفكرية لفلسفة نهاية التاريخ :

---

[١] حسب الله يحيى ، ثقافة الإرهاب والعولمة ، دار الشؤون الثقافية العامة ، بغداد ، ٢٠٠٤ ، ص١٨٠ ص١٨١ .

[٢] د. ناظم عبد الواحد الجاسور ، موسوعة المصطلحات السياسية والفلسفية والدولية ، دار النهضة العربية، بيروت ، ٢٠٠٨ ، ص٦١٨ .

لفترة طويلة أُعتبَر فوكوياما واحداً من منظري المحافظين الجدد ، إذْ أسس هو ومجموعة من هؤلاء في عام ١٩٩٣ مركزاً للبحوث عُرفَ آنذاك بمشروع القرن الأمريكي . إنّ فلسفة نهاية التاريخ ليست شيئاً جديداً في الفكر الإنساني ، فهي فكرة مسبقة شائعة لدى الشعوب على مَرِّ الأزمان . ولعلّ أبرزها الفلسفات الدينية والأيديولوجية منظوراً إليها من منظار سياسي . فتلك العقائد قائمة من حيث المبدأ على مفهوم نهاية التاريخ إذ تصور نفسها على أنها إجابات مقدسة مطلقة وأبدية . وأبرز مثالين على تلك الفلسفات بنوعيها (الجمهورية) لأفلاطون و (مدينة الله) لأوغسطين و (الشيوعية) لكارل ماركس .

ونستطيع القول إنّ المجتمعات غالباً ما تميل إلى إنتاج فلسفة نهاية التاريخ والاعتقاد بها في حالتين ، حالة هزيمتها أو انهيارها أو حالة انتصارها . في الحالة الأولى تكون الفلسفات الدينية ، التي تحذر من أنّ العالم قد أوشك على الانتهاء ، وفي الحالة الثانية تسود الأفكار أو الفلسفات القومية أو الذاتية التي تبشر بانتهاء التاريخ بوصوله إلى أقصى ما يمكن أن يصل إليه البشر من علوٍ وسمو . لا نجد في هذا الصدد أروع ممّا قاله المؤرخ البريطاني (أر نولد توينبي) بأنّ سراب الخلود يغشى بَصَر شعب دولة الحضارة العالمية ويصبح مقتنعاً بأنّ ما لديه هو الشكل النهائي للمجتمع الإنساني . وربما خير ما يُعبر عن الحالة هذه في عالمنا المعاصر هو النظرة المتفائلة التي شاعت في أعقاب انتهاء الحرب الباردة بين الاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية ، حول انتصار الحضارة الغربية الرأسمالية على الشيوعية ، والتأكيد على أنّ الحضارة الأولى هي نمط الحياة الأنسب [١] .

إنّ نظرية نهاية التاريخ ليست بالفكرة الجديدة – كما سبق وأن ذكرنا – بل هي فكرة مرتبطة باثنين من كبار المفكرين الألمان هما (فردريك هيجل) و (كارل ماركس) ، وتم إحياؤها على يد أستاذ الفلسفة الفرنسي ذي الأصل الروسي (الكسندر كوجيف) الذي كان يُدرِّس في الثلاثينيات من القرن العشرين الفلسفة الهيجلية في المدرسة العلمية للدراسات العليا في باريس .

لقد كان في اعتقاد كل من هيجل وماركس أنّ تطور المجتمعات البشرية ليس إلى ما لا نهاية ، بل إنّ التاريخ سيصل إلى نهايته حينما تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع الذي يشبع الاحتياجات الأساسية والرئيسة للبشر ، فأعلن ماركس عن قرب نهاية التاريخ المعروف ، بقرب انهيار الرأسمالية التي وصلت إلى حافة الانهيار بفعل تناقضاتها الداخلية،

---

[١] فوكوياما ، المصدر السابق ، ص٤٨ .

وستكون النتيجة بزوغ الشيوعية واختفاء التناقضات ، ويبدأ التاريخ الحقيقي للإنسان الذي هو نهاية التاريخ . وقبله أعلن هيجل ، نهاية التاريخ إثَر معركة أيينا (١٨٠٦) ، معتبراً أنّ انتصار جيوش نابليون على الملكية البروسية قد مَثّلَ انتصاراً لمُثُل الثورة الفرنسية ، وإيذاناً بالتعميم الوشيك للدولة القائمة على مبادئ الحرية والمساواة وقيام الدولة القومية البروسية التي هي نهاية التاريخ(١).

وعندما انتصرت دول المحور في الحرب العالمية الثانية ، قام الكسندر كوجيف بمحاولة لإحياء فكرة هيجل عن نهاية التاريخ ، إذ رأى في هذا الانتصار الساحق عودة إلى الانتصار النابليوني ، لكنّه هذه المرة مُعمَّم بشكل أوسع ، إذ برزت الدولة العالمية في نظره أكثر انسجاماً في سياقها الرأسمالي وتجسيداً عملياً للروح المطلقة ، واعتبر أنّ أشكال الفعل السالب كلّها من حروب وثورات ستزول(٢) .

---

(١) وليد خالد احمد ، نهاية الفوكويامية / قراءة تحليلية لطروحات فرانسيس فوكوياما ، أم المعارك ، بغداد ، العدد ١٩ و٢٠ ، ت٢ / ١٩٩٩ ، ص١٣٨ .

(٢) إبراهيم محمود ، فلسفة نهاية التاريخ الأمريكية ، المستقبل العربي ، بيروت ، العدد ١٤٦ ، ١٩٩٢، ص١٣٣ .

المبحث الثاني : تقويم أطروحة نهاية التاريخ :

الدور الحقيقي لأية فكرة مبتكرة أو جديدة هو للوظيفة التي تؤديها الفكرة ، إنّ فكرة نهاية التاريخ لفوكوياما ، تتحدث عن الماضي ، ومن ثّم فإنها تبعث على الاطمئنان على مستقبل الولايات المتحدة الأمريكية ، إذ هي تؤكد على الانتصار النهائي لليبرالية ، الشيء الذي يجعل – على سبيل المثال – التساؤل عن جدوى تخصيص مبالغ هائلة للدفاع في ميزانية الولايات المتحدة تساؤلاً مشروعاً [1] فقد حوت نظريته أفكاراً تمجيدية للرأسمالية وانتصارها النهائي على الشيوعية ، وقد أثار بعمله هذا جدلاً واسعاً في الولايات المتحدة الأمريكية وأوربا وأرجاء كثيرة من العالم ، نظراً إلى كثافة أفكاره ومركزيته المتأمركة – إن صح التعبير –كما شكلّ عمله هذا بياناً تمجيدياً لأمريكا وموقعها العالمي الجديد ودورها في تدشين نظام دولي جديد ، فهو يؤكد مكرراً في أكثر من مكان في عمله ، أنّ العالم اليوم هو أمريكا وأنّ أمريكا هي العالم ، أي أنّ كل شيء هو الآن أمريكي أو متأمرك أو عليه أن يتأمرك ، فذلك من مصلحته .

وقد نوقشت نظرية فوكوياما وانتقدت على نطاق واسع من العالم ، وقد ذكر بعضهم أنّ مانشهده ً ليس نهاية الحرب الباردة أو مرور فترة معينة لمرحلة ما بعد الحرب ، وإنّما نهاية للتاريخ ، بوضع حد للأفكار الأيديولوجية في التاريخ الإنساني وانتشار قيم الديمقراطية الليبرالية الغربية ، وتقوم نظرية نهاية التاريخ على ثلاثة عناصر هي: **الأول:** أنّ الديمقراطية المعاصرة قد بدأت في النمو منذ بداية القرن التاسع عشر وانتشرت بالتدرج كبديل حضاري في مختلف أنحاء العالم للأنظمة الدكتاتورية ، أّما العنصر **الثاني:** فإنّ فكرة الصراع التاريخي المتكرر بين السادة والعبيد لا يمكن أن يجد له نهاية واقعية سوى الديمقراطية الغربية واقتصاد السوق الحر ، أّما العنصر **الثالث** : فإنّ الاشتراكية الراديكالية أو الشيوعية لا يمكنها لأسباب عِدّة أن تتنافس مع الديمقراطية الحديثة وبالتالي فإنّ المستقبل سيكون للرأسمالية . وقد وجدنا أنّ معظم الانتقادات ركّزَت على دراسة أصل الفكرة وكونها فكرة مكررة وليست جديدة ، أكثر من تركيزها على المضمون والرؤيا الفكرية الإستراتيجية التي تطرحها وتنظيرها المستقبلي لِما يجب أن تقوم به أمريكا وما يجب أن يقوم به الآخرون .

---

[1] محمد عابد الجابري، قضايا في الفكر المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ١٩٩٧، ص٨٤ .

فالمعرفة غاية كل نظرية أو طرح فكري وهدفه ومضمونه يجب سبر أغواره وتحليل فقراته والتعرف على البيئة التي أنتجت مثل هذه النظرية أو الفكرة ، إذ أنّ الإنسان بشكل عام والمُنظِّر أو المفكر بشكل خاص انعكاس لبيئته وتجسيد لها بأعماله وأفكاره . وينطبق هذا على فوكوياما ونظريته ، فجوهر هذه النظرية يتماشا مع رؤية الولايات المتحدة الأمريكية بأبعاده كافة . فهي تعيش لحظتها العالمية وكونها راغبة في إدامة أمد هذه اللحظة، تحاول فرض هيمنتها على العالم لتجاوز كل منافسة وكل محاولة لنزعها عن قمة النظام العالمي ، فهي تحاول أن تكون التجسيد الحي والأمثل (لنهاية التاريخ)[١] .

قدم لنا فوكوياما في نظريته مستويين من النص : **الأول** جاء مغلفاً بالمقدمات الفلسفية المجردة ، و**الثاني** يعرض لنا اغتصاب التاريخ عبر مفهوم جديد لبداية حركة – منظمة – لغرض المصادرة والهيمنة ، وبنزعة مكشوفة ، تقسم العالم الجيو – سياسي إلى عالمين ، تحت قناع عقلنة التاريخ ، وضمان انتصار العنصر الأبيض وحده ، مقابل انحطاط وتفتت وتشرذم الآخر[٢]. فالعالم الثالث طبقاً لهذه الأطروحة سيظل غارقاً في مستنقع التاريخ وسيشكل بؤرة لنزاعات المستقبل ، أّما العالم الغربي فقد وصل إلى نهاية التاريخ وسيكون أكثر انشغالاً بالاقتصاد ممّا هو عليه بالسياسة والإستراتيجية .

لقد استعار فوكوياما أو اتبع المنطق الجدلي لهيجل وماركس لإثبات صحة نظريته . إذ اعتقد مثلهما أنّ تطور المجتمعات البشرية ليس إلى ما لا نهاية ، بل إنّه سيتوقف حين تصل البشرية إلى شكل من أشكال المجتمع يشبع احتياجاتها الأساسية والرئيسية ، بمعنى آخر إنّ التاريخ موجهٌ نحو هدف معين متى ما وصل إليه فإنّه سوف يتوقف وينتهي .

ويؤكد : (إنّ الديمقراطية الليبرالية تبقى التطلع السياسي الوحيد المتماسك الذي يربط مناطق وثقافات مختلفة جميعها أنحاء الكرة الأرضية) ، ونحن نعتقد وعِبر تجارب الشعوب وفي أزمنة مختلفة ، إنّه لا يمكن الجزم أو القطع بنظرية شمولية للعالم أجمع، فمثل هذه

---

[١] إيناس عبد السادة ، الصراع الدولي ومستقبل الدولة القومية في عالم ما بعد الحرب الباردة ، (رسالة ماجستير غير منشورة) ، جامعة بغداد ، كلية العلوم السياسية ، ٢٠٠٢/٢٠٠٣ ، ص٧٥.

[٢] صباح ياسين ، تفكك البنى الحزبية العراقية في إطار المشروع الأمريكي ، المستقبل العربي ، العدد٣٠٠ ، شباط / ٢٠٠٤ ، ص١٣ .

النظرية من شأنها أن تصطدم بالواقع الاجتماعي والاقتصادي الذي يفرز طبيعة الحكم الأفضل كما يراه الشعب ، ويحدده على وفق إرادته[١] .

ويرى فوكوياما أنّ الرأسمالية طريق متاح للدول كافة الراغبة في تحقيق التنمية الاقتصادية . فما من دولة متخلفة من العالم الثالث هي في وضع سيء لمجرد أنّها بدأت عملية الإنماء متأخرة عن أوربا ، وما من دولة صناعية هي في وضع يُمكّنها من الحيلولة دون تنمية دولة وفدت متأخرة ، شرط أن تلتزم هذه الأخيرة بقواعد لعبة الليبرالية الاقتصادية. أي أنّ النظام الرأسمالي لم يكن في يوم من الأيام عقبة في سبيل تحقيق التنمية الاقتصادية في العالم الثالث ، وإنّما فشلت التنمية وحسب اعتقاده ، لسببين :

أولهما :حضاري إذ تُشكل العادات والتقاليد والديانات والبناء الاجتماعي لشعوب هذا العالم ، وإلى حدٍ ما عائقاً في سبيل تحقيق مستويات أعلى من النمو الاقتصادي ، وهو عكس الحالة في أوربا مثلاً .

أمّا **ثانيهما** : فيراه سياسياً ، فعدم نجاح الرأسمالية في أغلب دول العالم الثالث يعود إلى عدم بذل هذه الدولأية محاولة جادة لتجربتها ، فأغلبية الاقتصاديات التي يُقال أنّها رأسمالية يشلها انتشار مؤسسات القطاع العام ، التي أقامتها الدولة بحجة حماية الحالة الاقتصادية[٢] ، إنّ طرح فوكوياما الأيديولوجي في تمجيد الدولة الرأسمالية الليبرالية التي يتحقق فيها الازدهار الاقتصادي والاعتراف والتقدير سيكون موجهاً إلى دول العالم الغارقة في التاريخ وأمجاد الماضي ، والذي فيه للدين والوطنية مصدر قوي محرك لنيل الاعتراف ، ويرى أنّ الاقتصاد والرغبة في نيل الاعتراف فضلاً عن الدِّين والوطنية ستشكل بمجموعها أساس الصراع في عالم ما بعد الحرب الباردة . ويذهب إلى المقارنة بين رفض العبد في بداية التاريخ المخاطرة بحياته في المعركة الدموية لأنّه كان هلوعاً بالغريزة ، أمّا الإنسان الأخير في نهاية التاريخ فهو يعلم أنّ لا فائدة من المخاطرة بحياته من أجل قضيةٍ ما، لأنّه يعلم أيضاً ، أنّ التاريخ كان مليئاً بالمعارك عديمة الجدوى[٣] .

إذن يتبين لنا أنّ فوكوياما يسعى إلى قتل الروح الوطنية ، وتدجين البشر جميعاً على وفق رأي واحد ، إلاّ أنّ التساؤل المهم يدور حول مبررات مثل هذا الطرح ودوافعه ، أهي

---

[١] حسب الله يحيى ، المصدر السابق ، ص١٨٦ .

[٢] فوكوياما ، المصدر السابق ، ص١٠٣ .

[٣] حسب الله يحيى ، المصدر السابق ، ص١٨١ .

كامنة في ملامح الانهيار التي بانت في نهاية عقد الثمانينيات من القرن العشرين في المنظومة الشيوعية ، الأمر الذي دفع بالغربيين إلى محاولة انتهاز الفرصة لتأكيد انتصار منظومتهم الفكرية القادرة على التجدد والتكيف الدائم الذي يضفي عليها من ثّم شرعية عالمية تعطيها الحق في تشكيلها لفكرة نهاية التاريخ !! أم أنّ وراء هذا الطرح دوافع أخرى كامنة في بنية المجتمع الغربي الرأسمالي ، أم المنافسة ما بين شطريه الأوربي والأمريكي ، ومحاولة الأول الانفلات من وصاية الثاني[١] ؟ .

يمكن القول أنّ هناك مبررات داخلية وخارجية وراء إعادة طرح نظرية نهاية التاريخ على يد فوكوياما . فداخلياً يمكن القول أنّ السبب متعلق بأزمة الفكر الرأسمالي ومنظومته، فجدل الفكر والفعل والتغذية المرتدة بينهما هي خاصية رهن الفعالّية النشطة الإنتاجية الإبداعية للمجتمع ، وحينيفقد المجتمع مثل هذه الخاصية ، يُصاب عقل الأّمة بحالة جمود تفضي إلى النكوص وغلبة الأسطورة ، أي يلوذ بالأسطورة إرثاً وتراثاً ماضياً مقطوع الصلة بالواقع الحي ، وهنا يغدو إطاراً مغلقاً يفقد ديناميكيتهوتاريخيته ويصبح عقلاً إطلاقياً لا تاريخياً محافظاً وجامداً ، كما يكون في مجال الثنائية في العلاقات، أي في تفاعله وعلاقته مع الآخر ،عقلاً سالباً ومنكفئاً على ذاته . وهذه إحدى نذر وسمات المجتمعات التي يكون تاريخها الحضاري على حافة الانهيار[٢] ، لذا تعتمد هذه المجتمعات – لتحويل هذا الانهيار إلى انتصار – على صياغة نظريات وفلسفات نهاية التاريخ لتغذية عقل الأمة ودفعها إلى الخروج من حالة الجمود الفكري الذي قد يؤدي إلى انهيارها . في ظل هذا الجو نشر فوكوياما نظريته التي مَجَّد فيها الرأسمالية والديمقراطية الليبرالية ، بوصفها آلية لعلاج أو تدارك الانهيار الفكري الغربي القادم مع بوادر اختفاء عدو نصف القرن – الشيوعية – وذلك عن طريق إسباغ طابع الديمومة والاستمرار على الرأسمالية وتأكيد واقعها وإظهار قدرتها على تحقيق التنمية والتطور والمبتغى من قبل أي مجتمع .

أّما الدافع الآخر والذي لا يقل أهميةً عن الأول فهو محاولة فوكوياما التنظير للعولمة والنظام العالمي الجديد ، وتبدو محاولته هذه في تقسيمه للعالم إلى شطرين أحدهما متجاوز للتاريخ ، والآخر ما زال غارقاً فيه . والذي يجب أن نُنَّبِه له ، أن فوكوياما حاول أن يؤكد أنّ

---

[١] إيناس عبد السادة ، المصدر السابق ، ص٧٨ص٧٩ .

[٢] شوقي جلال ، العقل الأمريكي يفكر ، من الحرية الفردية إلى مسخ الكائنات ، مؤسسة الانتشار العربي، بيروت ، ط٢ ، ١٩٩٧ ، ص١١ .

التاريخ هو تاريخ صراعات ، والحقيقة التي لا تقبل النقاش ، أنّ التاريخ ليس تاريخ صراع ونزاع فحسب ، بل هو سيرة شاملة تمثل قصة الإنسان بكل مآسيها ومفاخرها ، وصيرورة النمو المعرفي والعلمي والفلسفي ، فأي تاريخ مشّوه يبقى بين أيدينا إذا قمنا بإلغاء كل ما لا يدخل في إطار الصراع ، فضلاً عن محاولته أن يميز الغرب من بقية العالم لتعريف هويته وتصدير قيمه بأبعادها كافة إلى بقية العالم .

إنّ أطروحة فوكوياما الفكرية هذه قد تجددت واكتملت على يد صموئيل هنتنكتون في كتابه الموسوم (صِدَام الحضارات) التي طرح فيها أفكار فوكوياما نفسها تقريباً ، إلاّ أّنه أضفى عليها أبعاداً جديدة تتلاءم ورؤيته ، وهما يتفقان في الخطوط العامة من تنظيرهما لهيمنة الولايات المتحدة الأمريكية التي تحاول عولمة العالم بل أمركته .

المبحث الثالث : موقف الفكر الإسلامي من أطروحة نهاية التاريخ :

تسعى أطروحة (نهاية التاريخ) – كما بّينا في الصفحات السابقة – إلى إلغاء البعد التاريخي عن رؤى عالمنا المعاصر ، ووضع الأمم والجماعات كافة عُراة قبالة الأنموذج الغربي التي تنزع إلى تسوية الجميع إزاء مطالبها ، لكنها تُريد من وراء هذا ترسيخ الفوارق الاقتصادية ما بين أغنياء العالم وفقرائه .

إّنها – بشكل من الأشكال – مناورة فكرية تمنح خلفيات تنظيرية لممارسات تتجاوز – إبتداء – منظومة القيم الخلقية ، وثوابت العقائد والأديان ، والمطالب الأساسية للإنسان، ومن وراء هذه المناورة تكمن الخبرة الغربية الاستعمارية .

إنّ إلغاء الذاكرة التاريخية ، وتحكيم الأنموذج الاقتصادي الغربي المتسلح بكل قوى العلم والتكنولوجيا والتفوق العسكري ، وحتى السياسي للغرب ، لن يجعل الفقير غنياً ، وينزل بالأغنياء لكي يقاربوا الفقراء ، بل ستجعل كل المستضعفين في الأرض ومنهم المسلمين ينسلخون عن تاريخهم ويفقدون تميزهم ، ويزدادون التصاقاً بالقوى المتحكمة في آليات الاقتصاد العالمي[1] .

---

[1] عماد الدين خليل، مدخل إلى الحضارة الإسلامية ، الدار العربية للعلوم ، بيروت ، ٢٠٠٥ ، ص١٩٤.

فهاهي نظرية (نهاية التاريخ) التي نادى بها فوكوياما ، تحاول ومن خلال العقل الغربي المتمثل بالولايات المتحدة الأمريكية ، وهي بتنظيرها للنظام العالمي الجديد ، وبحكمها بالإعدام على كل ما يربط الإنسان بالعقيدة والأرض والتاريخ ، توظف خبرات الجمعيات الماسونية والحركة الشيوعية وتضيف إليها قيماً وأبعاداً أخرى ، وبذلك سيزداد القوي قوةً والضعيف ضعفاً ، وستشهد البشرية حلقة محزنة أخرى من أشد الحلقات تعاسةً وضلالاً . إنّها بما تنطوي عليه من إلغاء للتاريخ ، إنّما هي رؤية خاطئة تتشكل على النقيض من قوانين التاريخ[1] .

إنّ التغاير ، والاختلاف ، والتدافع ، والتنوع هي من صميم النشاط البشري عبر مسيرته التاريخية الطويلة ، هذا ما ذكره القرآن الحكيم في قوله تعالى : {**وَلَوْلاَ دَفْعُ اللّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللّهَ ذُوفَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ**} سورة البقرة / ٢٥١ ، وقال عزَّ من قائل : {**وَلَوْ شَاء رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلاَ يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ *إِلاَّ مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ**} سورة هود / ١١٨و١١٩ ، وقوله تعالى : {**يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ**} سورة الحجرات / ١٣ .

قيمة ما يعرضه فوكوياما لا تكمن في أطاريحه ، إنّما لأنّه يعكس خلفية السياسة الغربية في عالمنا المعاصر ، وخاصةً بُعيد انهيار المنظومة الشرقية (الشيوعية) .

ولأنّ السياسي يفصح عن اتجاهه بوضوح أكبر ، نُذكّر بآراء رئيس سابق للولايات المتحدة الأمريكية هو ريتشارد نيكسون ، إذ يعتبر أنّ أميركا قد سنحت لها فرصة تاريخية بانهيار الاتحاد السوفيتي السابق ، فقال : (بعد الأحداث الصاخبة لأعوام ١٩٨٩ و١٩٩٠ و١٩٩١ ، جاء الوقت المناسب كي تعيد أمريكا رسم اتجاهاتها الجيو – سياسية ... إنّ أولياتنا الأولى يجب أن تدور حول رسم أمريكا وإعادة صياغة إستراتيجيتها)[2] .

---

[1] المصدر نفسه ، ص١٩٥ .

[2] ريتشارد نيكسون ، أميركا والفرصة التاريخية ، ترجمة محمد زكريا إسماعيل ، مكتبة بيسان ، بيروت ، ١٩٩٢ ، ص٣٤ .

وريتشارد نيكسون يؤمن تماماً أنّ الولايات المتحدة الأمريكية بقيمها وسياساتها تمثل العلم ، والعدل ، والحضارة أكثر من أي دولة أو شعب آخر ، إنّه يجد أنّ الزعامة الأمريكية سوف تبقى عنصراً لا غنى عنه عِبْر العقود القادمة[١] .

بل إنّ نائب وزير الخارجية الأمريكي السابق ، ايغلبرغر ، ينظر إلى الزعامة الأمريكية كفضل من الولايات المتحدة الأمريكية على دول العالم ، لذلك يطالب الآخرين بدفع التكاليف للولايات المتحدة من أجل الحفاظ على النظام الدولي الجديد !![٢] .

فكما معلوم ، فإنّ النفس البشرية جُبِلَت على الانتماء للتاريخ ، وكل محاولات فك الارتباط بين الإنسان وتاريخه باءت بالفشل ، وَبقي العمق الزمني الذي ينطوي على الخصائص والمقومات ، ماضياً لكي يعمل عمله في صميم الممارسات والخبرات ، أّما بخصوص النظام الدولي الجديد ، فلن يتسع المجال للدخول في التفاصيل ، إلاّ أنّ سؤالاً ملحاً يتبادر إلى الأذهان في ضوء الخبرة التاريخية ، عن احتمالات دوام نظام موحد تستقطبه قوة واحدة تنفرد بالمصير .

وعبر لتاريخ الغربي ، كانت دائماً هناك دولة مدينة روما بمواجهة دولة مدينة أثينا ، والبابوية الكنسية بمواجهة القسطنطينية الإمبراطورية ، والحضارة الرومانية المقدسة بمواجهة سلطة البابا ، وفرنسا بمواجهة بريطانيا وألمانيا وروسيا ، والمملكة البريطانية بمواجهة القارة الأوربية ، ودول المحور بمواجهة المستعمرين القدماء ، والولايات المتحدة الأمريكية بمواجهة بريطانيا ، والاتحاد السوفيتي وأوربا الغربية بمواجهة الولايات المتحدة الأمريكية[٣] .

ومعنى هذا أيضاً أنّ على عالم الإسلام اليوم ألاّ تذهب به الهزيمة النفسية إزاء التفرد الغربي الأمريكي إلى أبعد مدى ، وأن يبذل جهده لكي يتماسك وينهض مستفيداً من حالة الثنائيات الغربية المتولِّدة باستمرار ، من الثغرات التي تفتحها في جدار الغرب . وقبل هذا ، مِنْ قُدرات الإسلام الذاتية على كل المستويات النفسية ، والفكرية ، والإستراتيجية ، والاقتصادية ، والحضارية في نهاية الأمر . وهي – بتميزها العقدي وعمقها التاريخي – يلت كلاماً يُقال ، وأمان ترجى ، ولكنها فاعلية في صميم الصيرورة التاريخية ، قديرة في حالة اعتماد الصيغ المدروسة والمحسوب حسابها ، على أن تحمي الوجود الإسلامي من

---

[١] المصدر نفسه ، ص١٩ .

[٢] نعوم تشومسكي ، ردع الديمقراطية ، ترجمة فاضل جتكر ، دار كنعان ، دمشق ، ١٩٩٢ ، ص١٠.

[٣] عماد الدين خليل ، المصدر السابق ، ص١٩٦ .

التفكك والذوبان ، بل أن تمضي ثانيةً باتجاه مواقع أكثر تقدماً على خرائط العالم المعاصر لكي تشارك في اتخاذ القرار وصياغة المصير .

إنّ ألفين من السنين تنسجان اليوم حيثيات الصراع بين الولايات المتحدة الأمريكية والإسلام ، ولكن في أي من هاتين الألفين قدر الغرب على أن يطمس نهائياً هوية الشرق؟، في أي منها ألقى الإسلام السلاح وارتمى –مغلوباً على أمره – في أحضان الغالبين؟ .

إنّ عالم الإسلام يقف اليوم قبالة حالة تاريخية ليست جديدة بالكلّية ، قد تكون جِدَّتِها في الزخم الكبير الذي تنطوي عليه ، بما أنّه حصيلة قرون طويلة من مسلسل طويل يبدأ في مدينة (أثينا) ولكنه لن ينتهي في العاصمة (واشنطن) . فها هي المتغيرات السياسية والاجتماعية الأكثر حداثةً تطل برأسها ، ولم يصل النظام العالمي الجديد – بعد – إلى بر الأمان : أوربا الغربية تتوحَد – ربما قبالة الولايات المتحدة الأمريكية – الجمهوريات الأوربية الشرقية التي كانت تابعة للاتحاد السوفيتي المنحل تتكتل من جديد ، وقد تضاف إلى أوربا الموحدة ... واليابان تواصل قفزاتها التقنية والاقتصادية بحساب متواليات هندسية قد تحد من قدرات التفرد الأمريكي في المستقبل المنظور ... والصين ودول جنوب شرق آسيا وبعض دول العالم الثالث قد تخز جملتها العصبية إبرة التحدي الجديد لعالم تهيمن على مقدراته إرادة واحدة ، فتتحرك لتفعل شيئاً ، على الأقل في سياق الرد السلبي ... ثّم الإسلام الذي طالما دفعته التحديات إلى استعادة حيويته وفاعليته[١].

ثمة ملاحظة أخيرة يسوقها النتاج الفكري الغربي ، وهي ما نُعَبِّر عنها بالمركزية الغربية، أو فلسفة المركز الذي يحكم الأطراف ، وهذا الملمح يناقض العلم والمنطق والتاريخ في افتراضه أنّ الإنسان الغربي وحده يستطيع قيادة العالم ، وكأنّما الأمر يتم بالوراثة ! ، لقد تمكن الغرب في القرون الماضية الأخيرة من تاريخ البشرية أن يبسط سلطته على مناطق واسعة من الكرة الأرضية ، وأن يتحكم بمقدرات شعوبها ودولها ، ولكن هذا لا يعني أنّ تطوراً بيولوجياً قد طرأ على إنسان الغرب ، فالتطورات العلمية والاجتماعية قد تحدث بوتائر متسارعة ومتباينة ، ولكن التطور البيولوجي لا يتم في فترة زمنية محسوسة كهذه الفترة ، وإنّما يستغرق ملايين السنين[٢] .

---

[١] المصدر نفسه ، ص١٩٧ص١٩٨ .

[٢] جودت سعيد وعبد الواحد علواني ، المصدر السابق ، ص٢١٣ .

الخاتمة :

بعد انهيار المنظومة الشرقية الاشتراكية في العقد الأخير من القرن العشرين ، برزت أفكار وتنظيرات سياسية في الولايات المتحدة ومنها أطروحة نهاية التاريخ والإنسان الأخير لفرنسيس فوكوياما ، التي حاول من خلالها تقديم أنموذج فكري اعتقد أنّه الأصلح لقيادة العالم مستنداً في رؤيته تلك إلى تمجيد النظام الليبرالي والحياة الغربية باعتبارها النمط الأسمى التي تصلح للحياة المعاصرة بعد التغيرات الدراميتيكية التي أصابت أوربا والعالم .

إنّ هذه النظرية تحاول أن تقدم التبريرات لإستراتجية جديدة في العلاقات الدولية اتبعتها الولايات المتحدة الأمريكية بعد زوال الاتحاد السوفيتي مبنّية على الصراع واستخدام القوة بأبعادها كافة ، العسكرية والسياسية والاقتصادية والتقنية ، وفرض هيمنتها على دول ومجتمعات العالم من أجل حماية مصالحها .

إنّ هذه الأطروحة ليست جديدة ، إنّها قديمة قِدم الإنسان ، لكنها محاولة جديدة لتسويق الفكر الغربي برداء جميل من التنظير ، فالنفس البشرية مجبولة على حب الانتماء للتاريخ ، وكل محاولة لفك الارتباط بين الإنسان وتاريخه باءت بالفشل ، ولاشك أنّ الشرق على شكله الحاضر هو صنعة الغرب ، والشرق هو بلا شك اختراع غربي المبنى والمعنى – كما يقول إدوارد سعيد في كتابه الاستشراق – ولكن هذا الشرق في تحولاتهالأخيرة قَضَّ مضاجع الغرب ويتوقع نيكسون بأنّ العصر الجديد في تاريخ العالم قد لا يسوده الصراع الأيديولوجي، ولكن مع ذلك قد يسوده العنف بدرجة أكبر ممّا كان في العصر الذي سبقه . لذا يبدو أنّ المفكرين الغربيين ومنهم فوكوياما يحاولون إعادة تصنيع الشرق من خلال نظرياتهم الجديدة التي يتكفل الإعلام الغربي نشرها .

والفكر الإسلامي يؤكد على حاجة الإنسان إلى الإيمان الذي يجعلنا نفهم (بطلان الرقي المادي من خلال الرقي نفسه) كما يقول ليوبولد فايس المفكر الغربي . وإنّ التغاير والاختلاف والتدافع والتنوع هي في صميم النشاط البشري عبر مسيرته التاريخية الطويلة. والإسلام مؤهل ليعيد الفكر الإنساني إلى جادة الصواب ، وقد رأينا سقوط نظرية نهاية التاريخ سريعاً على يد مفكر أمريكي آخر هو صموئيل هنتكتون لأنها غير جديرة بأن تستمر ، فكانت كالزَبد الذي يذهب جفاء فهل نحن على عتبة تاريخ جديد ؟ .

يبدو أنّ الغرب أدرك أنّ الإسلام هو أكثر المنظومات مناهضةً لهيمنته مهما بالغ في تسلطه وقوته الأمر الذي دفع فوكوياما لأن يغير مواقفه وقناعاته فطرأ عليها تحولاً في نهاية

عام ٢٠٠٣ ، حين دعا إلى استقالة وزير الدفاع الأمريكي السابق دونالد رامسفيلد على خلفية الغزو الأمريكي للعراق ، واعتبر الرئيس بوش قد ارتكب ثلاثة أخطاء رئيسة هي : أولاً : المبالغة في تصوير خطر التشدد الإسلامي على أمريكا . وثانياً : إساءة تقدير إدارة الرئيس بوش لردود الفعل السلبية إزاء مشاعر العداء لأمريكا في العالم الثالث. وثالثاً : التفاؤل الزائد في إمكانية إحضار السلم إلى العراق من خلال الترويج لقيم الثقافة الغربية في العراق والشرق الأوسط .